**المراثي النّبوية**

لقد ورد في المُعجم الوسيط قوله:

رثى الميِّت، رثياً ورِثاءً، ورثايةً ومرثاةً ومرثيّة، بكاهُ بعد موته وعدّد محاسنه، والمرثية، المرثاة، جمعُها مراثٍ، والمرثاةُ ما يُرثى به الميِّت من شِعرٍ وغيره. (ص329).

**والرِّثاء:** غرضُ من أغراض الشِّعر العربي أساسُه الوفاء أو السجيّة، إذْ يقضي الشّاعر بقوله حُقوقاً سلفت، أو يرسل تعداداً لمآثر الأهل، ويجمع شُعراء الرِّثاء في رِثائهم بين التفجُّع والحسرة والأسف والتلهُّف **والاستعظام، ويعُدُّون مآثر الميِّت مصحُوبةً بالدُّموع، والرِّثاء عادةً يكونُ لمن مات حتف أنفِهِ، أو يُقتلُ في غير حربٍ.**

**لقد عرف العرب الرِّثاء مُنُذ العصر الجاهلي، وقد وقفوا مثل غيرهم من الأُمم أمام ظاهرةِ الموتِ القاهرةِ، وعبّروا عن حُزنِهِم العميق إِزاء موتاهم بطُرُقٍ شتّى، فقد بكوهُمُ بحرقةٍ، وأفصحوا عن زوالِ صبرِهِم قِبَلَهَم، فالموتُ ظاهرةٌ كونية عامة تُعبِّر عن درامية المصير الإنساني ككُلّ، فممّا لا شكّ فيه أنّ كُلّ كائن يطرُق باب الموت، ومع ذلك تعجِزُ العُقول عن معرفة كنهِهِ، ويفشل الوعي البشري أمام عتماته، وعليه عمَدَ شُعراءُ الرِّثاء مُنذ القِدَم إلى ذمِّ الدّهر والأيّام لتقلُّباتِها، وتولِّي العيش وذهابه، وتغيُّرِ الأشياء، وتخطِّي المنايا إلى الأشرفِ فالأشرف، والأفضل فالأفضل، ولا أفضل من الرّسول (مُحمّد صلّى الله عليهِ وسلّمْ) الذي غادر الكونَ كبقيّةِ البشر، وترك فجوةً غائِرةً في تاريخ البشريّة جمعاء، وجُرْحاً لا يندمِلُ في نُفوسِ المُؤمنين على مدى الحياة.**

**وأمام عُموم هذه الفاجعةِ وجلال الرزءِ، نتساءل كيف عبّر شُعراء الدّعوةِ الإسلامية عن هذه الفاجِعة؟ وكيف صوّروا موته (صلّى الله عليهِ وسلّمْ)؟ وما هي أفكارهُم حول الموت بعد مجيء الإسلام؟**

**لقد كان الإسلام مُؤثِّراً على طبيعة الحياة العربية خاصّة والبشرية جمعاء، فقد عمل على تغيير العقائد والتصوُّرات، وجاء بمعانٍ سامية فيها الكثيرُ من العُمق والصِّدق والحقيقة، فهُو مشرُوعٌ مُتكامِلُ الجوانِب، هدفُهُ تكوين مُجتمعٍ سليم، مُتماسِك الأركان، قويّ البُنيان، قِوامُهُ الوفاء والصِّدق والتّعاوُن والتّكافُل، والرّسولُ الأعظم مُحمّد صلّى الله عليهِ وسلّمْ تمثّل هذا الدِّين السّامي، وجسّد حُطوطه الكُبرى، تارةً كعابِدٍ، وتارةً كقائدٍ وحاكِم، وقاضٍ كذلك، فتجسّدت في شخصيته الكريمة أسمى معاني الإنسانية والقِيم العُليا طيلة حياتِهِ، لذا كان لِموتِهِ هوْلٌ في النُّفوس، وشُرودٌ للعُقول، فقد خبا كالنّجمِ وترك أصحابهُ في تِيهٍ ووِحشةٍ، وأظلمت آفاق الدُّنيا عليهم حتّى غدتِ المدينة المُنوّرةُ موطناً للحُزن والبُكاء، ولولا قولِهِ تعالى:** "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ" [الزّمر:30] **لهلكت الكثيرُ من النُّفوس الضّعيفة.**

**ولذا جاءت مراثي الرّسول صلّى الله عليهِ وسلّمْ عامرةً بالحُبّ والعواطف الجيّاشة لشخصِهِ صلّى الله عليهِ وسلّمْ، وكان حسّان بن ثابِت شاعر الدّعوة أسرع النّاس إلى رِثائِهِ حيثُ يقول:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| مَا بَالُ عيْنيْكَ لا تنامُ كأَنَّمَا |  | كُحِلَت مَآقيها بِكُحلِ الأَرمَدِ |
| جَزَعاً عَلى المَهدِيِّ أَصبَحَ ثاوِياً |  | يا خَيرَ مَن وَطِئَ الحَصى لا تَبعُدِ |
| بِأَبي وَأُمّي مَن شَهِدتُ وَفاتَهُ |  | في يَومِ الاِثنَينِ النَبِيُّ المُهتَدي |
| أأُقِمُ بَعْدَكَ بالمدِينةِ بيْنَهُم |  | يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ سُمَّ الأَسْوَدِ |

**فالتّحسُّر والتفجُّع لموتِهِ صلّى الله عليهِ وسلّمْ ملَك المُهاجِرين والأنصار، الكِبارَ مِنْهُم والصِّغار، وكيف لا؟ وهُو خيرُ البريّة ومِصْباحُ الهُدى، وفيه يقولُ كعبُ بنُ مالك:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يَا عَيْنُ فَابْكِي لدَمْعٍ ذَرَى |  | لِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَالْمُصْطَفَى |
| وَبَكِّي الرَّسُولَ وَحُقَّ الْبُكَا |  | عَلَيْهِ لَدَى الْحَرْبِ عِنْدَ اللِّقَا |
| عَلَى سَيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْفَلٍ |  | وَخَيْرِ الأَنَامِ وَخَيْر اللَّهَا |
| وَكَانَ بَشِيرًا لَنَا مُنْذِرًا |  | وَنُورًا لَنَا ضوءه قَدْ أَضَا |
| فَأَنْقَذَنَا اللَّهُ فِي نُورِهِ |  | وَنجِّى بِرَحْمَتِهِ مِنْ لَظَى |

**وحتّى النِّساء ساهَمْنَ في رِثاء المُصطفى صلّى الله عليهِ وسلّمْ خيرِ البريّةِ، فقد عمل الرّسول صلّى الله عليهِ وسلّمْ على إعادةِ الاعتِبارِ لهُنَّ، وخصّهُنّ بالرِّعايةِ واللُّطفِ والطّاعةِ، وجعل الجنّةَ قريبةً لِمَنْ أبدى لهُنّ البِرَّ والإِحسان، وعن موتِهِ تتحسّرُ صفيّةُ بِنتُ عبدِ المُطّلِب عمّةُ الرّسول صلّى الله عليهِ وسلّمْ بقولِها:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ألا يا رسولَ اللهِ كُنتَ رَجَـاءَنا |  | وكنتَ بِنَا بَرَّاً ولم تَكُ جَافِيَا |
| وكُنتَ رَحِيمَاً هَادِيَاً ومُعَلِّمَاً |  | لِيَبكِ عَلَيكَ اليومَ مَن كَانَ بَاكِيَا |

**وأمّا السيِّدةُ "فاطِمة الزّهراء" بِنتُ الرّسول صلّى الله عليهِ وسلّمْ فقد عاشت فاجِعةً موتَ أبيها بِكُلِّ جوارِحِها، وأحسّت بأنّ الأرض قد مادت تحت أقدامِها، والكون قد ارتجف لفُقدانِهِ صلّى الله عليهِ وسلّمْ، حيثُ تقولُ:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| اِغبرّ آفاقُ السماءِ وكوّرت |  | شمسُ النهارِ وأظلم العصرانِ |
| فَالأرضُ مِن بعدِ النبيّ كئيبةٌ |  | أَسفاً عليه كثيرةُ الرجفانِ |
| فَلَيبكهِ شرقُ البلادِ وغربُها |  | وَليَبكهِ مضرٌ وكلّ يَماني |
| وَلَيبكهِ الطور المعظّمُ جوّهُ |  | وَالبيتُ ذو الأستارِ والأركانِ |
| يا خاتم الرّسلِ المبارك ضوؤهصلّى عليكَ منزّل الفرقانِ |  | صلّى عليكَ مُنزّل القرآنِ |